شفيق غربال مؤرخاً

« محاضرة ألقيت فى الجمعية المصرية
للدراسات التاريخية فى ٣/١٢/١٩٦٢ »

يمثل محمد شفيق غربال طرازاً قائماً بذاته فى قائمة من تصدوا للكتابة التاريخية فى مصر ، وربما فى العالم العربى بأسره . وهو ينتمى إلى جيل بذاته ، له سماته الخاصة ونظرته الخاصة إلى العلم والمعرفة ؛ وهو الجيل العملاق الذى أسهم فى إعادة تشكيل الحياة الفكرية فى مصر حين نقل إليها طرائق البحث العلمى التى عرفها العالم الغربى المتطور ، وتمثلها وهضمها ثم عاد يتبهجها فى تناول التراث العربى الإسلامى . وبعد — فغربال تلميذ أرنولد توينبى الذى بدأ مؤرخاً بالمعنى الحرفى للكلمة لينتهى مؤرخاً للحضارة ومفلسفاً لها . وأهميته فى حركة التفكير التاريخى فى مصر أنه يمثل نقلة لها وزنها ، وأنه ترك انطباعات حية فى تفكير ونهج من تتلمذوا عليه . . . وهى انطباعات اختلفت قوة وضعفاً باختلاف المدارك والآفاق . فغربال فى حد ذاته يمثل ثورة فى المنهج التاريخى فى المشرق العربى ؛ فهو يتميز — وفقاً لما قاله عنه الدكتور منصور فهمى — بذهن ذكى غنى بشتى المعلومات ، وقدرة على التركيز والتلخيص وعلى التركيب والتحليل ... إلى جنوح للتعميق المتوغل إلى واقعية ساطعة ودقة فى النقد . وليس ذلك بغريب على من يرى أن المؤرخ المبدع لا بد أن « يجمع إلى الدراية التامة بأصول النقد براعة الفنان المتمكن من الحذف والإثبات ، وأن يكون ناقداً فناناً يقهر المادة الخفل ليستخرج منها التاريخ الحى[1] » . وهو بعيد كل البعد عن المنهج الكلاسيكى الذى درج عليه كتاب السيرة والتواريخ والمغازى والخطط والآثار والتراجم فى العالم الإسلامى : منذ دراساته بتفهمه لطبيعة علمه ومدارسه فى الشرق

---

(١) فى تقديمه للجزء الأول من ترجمة كتاب هربرت فشر عن « تاريخ أوربا » .

والغرب ، وطعمه بشىء من التذوق الأدبى — الفنى ، مع توسيع لقاعدة المعرفة التاريخية بالأدب والفلسفة وعلوم النفس والاجتماع . وهنا يصدق عليه ما دعا إليه بعض المفكرين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر من المهتمين بتاريخ الحضارة Kulturgeschichte من حيث جعل التاريخ محوراً للدراسات الإنسانية قاطبة . ولقد عاش غربال ومات مؤرخاً . حقيقة لقد تعرض لما تعرض له أمثاله من مناصب قيادية تسعى إليه ولا يسعى إليها . ولكنه كان يأخذ ذلك بشىء من الرفق ، ولم ينس أو يتناس جذوة المؤرخ الكامنة فيه . كما لم يشغله شىء عن قراءاته الشاسعة فى كل مجال ، وهى القراءات التى مكنته من القدرة على الإفادة وأضفت عليه وضعه البارز ليس فقط فى حقل الدراسات التاريخية وحدها ، بل فى حقل المعرفة بمعناها الواسع . وحتى فى حقل تخصصه ، أو احترافه — إن شئنا الدقة — أى التاريخ ، نجد غربال لا ينتمى لعصر أو تخصص معين ، وإن لمع فى مجالات التاريخ الحديث .

والآن نحاول أن نضع غربال فى موضعه الحق فى تاريخ الدراسات التاريخية فى مصر . وهذا يستلزم منا مدخلا إلى طبيعة التاريخ والمؤرخ وإلى طبيعة الفترة التاريخية التى عاش فيها غربال وأنتج .

كتب وليم ميتلاند (William Maitland) الذى كان أستاذاً للقوانين الإنجليزية : « إن وحدة التاريخ فى مجموعه تدفع كل من يتصدى لكتابة ناحية من نواحيه إلى الشعور بأن جملته الأولى إنما تقطع خيوطاً غير منتظمة » . وضرب لذلك مثلا بأن جذور القانون الإنجليزى تكمن فى بلاد الإغريق وأن أصول القانون الرومانى تكمن فى بابل . ثم حين قرر وجوب تقطيع خيوط العنكبوت أضاف قائلا : « وحين نقطع [هذه الخيوط] ، علينا أن نلحظ مصدر ومصير عدد من الخيوط المنفصلة المعقدة المتداخلة ، وهى الخيوط التى كانت توفر أنموذجاً كبيراً جداً بالنسبة إلى عين أى إنسان » .

وليس أصدق من ذلك ولا أكثر حيوية فى تجسيم طبيعة إحدى المشكلات الرئيسية التى تواجه المؤرخ . فهو — شأنه شأن عالم الطبيعة — تواجهه كمية ضخمة من الحقائق يطلق عليها فى التاريخ اسم الوقائع . وسواء أكانت هذه الوقائع تتكشف من ثنايا عدد لا حصر له من الوثائق ، أو ما إذا كانت بعيدة عن متناول التحقيق العلمى وسط ضباب العصور البدائية أو فى ثنايا غيوم التآمر الحديث فى المجالين السياسى والاقتصادى ، فإننا — على كل حال — نجد نشاط المؤرخ وقد حدت منه غزارة مادته . يضاف إلى ذلك أن المؤرخ يختلف عن عالم الطبيعة الذى بإمكانه أن يستعيد تجربته ؛ فمن المستحيل استعادة الحادثة التاريخية . فنحن — مثلاً — لا نستطيع أن نستدعى الملك أحمس ليذكر لنا بنفسه كيف طرد الهكسوس . ولا نستطيع استعادة معركة ووترلو لكى نتبين أسباب انتصار ولنجتون وانهزام نابليون . ونتائج اكتشاف كولمبس لأمريكا بالنسبة إلى الحياة فى أوروبا لابد أنها كانت بعيدة عن مجال التحليل حتى فى الوقت الذى كانت فيه أنباء هذا الاكتشاف أمراً جديداً . ويمكن القول بأن المؤرخ الحديث الذى يجمع ما يستطيع جمعه من أنباء الماضى قد يعرف عن هذه الأنباء أكثر مما كان يعرفه معاصروها .

فمهمة المؤرخ إذن ليست بالمهمة الهينة . والذى يفرق مؤرخاً عن آخر أن أحدهما تتشعب به الدروب جرياً وراء السرد والتفاصيل التى تسيطر على المادة وبين آخر يجمع ما يمكنه جمعه من المادة ، ثم يعيد صياغتها وفقاً لخطة مرنة تربط أطراف الموضوع بعضها ببعض ، فيخرج فى نهاية الأمر بوحدة عضوية مترابطة متفاعلة لا يبددها شىء من التكرار أو التفكك . والعبرة هنا بالكيف لا بالكم . وفرق بين المؤرخ الحقيقى وبين راوى الأحداث أو جامع المادة وناشرها .

ونحن إنما نشكل جزءاً من الحضارة العربية التى نستلهم تراثها ؛ كما أننا — من ناحية أخرى — ننتمى إلى المجتمع العالمى المتطور . والتأريخ عند العرب —

مع بعض الاستثناءات الطفيفة — إنما هو عملية من السرد تمعن فى التفاصيل ولا تدقق أو تحقق ، بل تعتمد على الرواية والنقل والخيال فى كثير من الأحيان . والتاريخ حتى وقت قريب — وحتى الوقت الحاضر — إنما هو من ملحقات الأدب القائم على الخيال . ولقد أسرف الكثيرون فى هذه الناحية ، بل امتد كثير من الأدباء إلى التاريخ وطبقوا عليه مناهجهم — إن كانت لهم مناهج — واختلط الأمر على الناس فلم يعودوا يميزون : أين ينتهى الأدب وأين يبدأ التاريخ ! وامتد فريق آخر من المهتمين بالسياسة إلى الدراسات التاريخية التى جعلوها فى كثير من الأحيان مطية لدوافع محددة . لست فى هذا المقام من المتزمتين الداعين إلى الموضوعية المطلقة(١) ؛ إذ أنها خرافة طالما أن من يكتب فى الدراسات النظرية كائن حى لابد له ميوله واتجاهاته وانفعالاته . إلا أن المؤرخ المستقل يضع كل ذلك فى إطار الحد الأدنى إلا أن تدفعه الوقائع العارية إلى انفعال معين رضى أم لم يرض . وحتى الآن لم يتحقق للتاريخ والدراسات التاريخية الاستقلال الذاتى عن دنيا أولية سديمية تكتنفها أهواء ومصالح لابد لها من عاصم .

ومن الطبيعى أن تحاول الحركات القومية أن تسند اندفاعاتها بأن تستخرج من اللاشعور القومى فترات عفى عليها الزمن كانت فيها الأمة المعنية تتبوأ مكانة سامقة سواء فى الحيز السياسى أو الفكرى أو الحضارى بوجه عام . والتاريخ هو ذاكرة الشعوب الحية ، وهو قنطرة العبور من جيل إلى جيل جيئة وذهاباً . ولكن ثمة خيط رفيع على دارسى التاريخ أن يتبينوه : ففرق كبير بين الأمجاد الحقيقية التى لا يخلو منها تاريخ أى شعب حى ، وبين الأمجاد المختلقة . فرق بين إزاحة الغبار عن الفترات الزاهية فى تاريخ الأمة وبين التزييف والتجديف .

---

(١) انظر مناقشة هذه القضية مناقشة بارعة فى :
Howard Fast, Literature and Reality
وملخص ماذهب إليه المؤلف أن « الحقيقة » لا تكمن فى فراغ ؛ بل لابد لها أن « تنحاز » .

وحين بدأت نهضتنا الفكرية لم يكن ثمة تخصص بالمعنى الضيق ، بل كان هنالك رواد يتميزون بسعة الأفق والثقافة ؛ وعلى رأس هؤلاء رجال من طراز أحمد لطفى السيد وطه حسين وشفيق غربال . وقد كون هؤلاء ما يمكن أن نسميه « بالأرستقراطية الفكرية » . فشعورهم بذواتهم وبجدة نوع ثقافتهم ومناهجهم وبخطر دورهم القيادى فى المجتمع المصرى ، وقلة أعدادهم — كل هذا مما خلع عليهم أهمية خاصة وسلط عليهم الأضواء فى مجالات الفكر والتوجيه . على أن نشاطهم قد اقتصر على دائرة ضيقة : فى قاعات التدريس — مثلاً — وفى حلقات الدراسة . وهذا هو دورهم الطبيعى . ولكن بعضهم — كأحمد لطفى السيد ، وطه حسين ومحمد حسين هيكل — اشتغلوا بالصحافة وتقاذفتهم عواصف السياسة بحلوها ومرها ، فتعرضوا لخبرات لا يرضى عنها كل مفكر ؛ ولم يجدوا التجاوب اللازم من الرأى العام الذى كان لا يزال مشدوداً إلى قيم وتصورات وزعامات تنزل إليه دون أن تعليه ، وتدغدغ أوهامه ولا تصارحه ، وتستثير خيلاءه بأحلام رومانسية غير واقعية . لهذا كسفت أضواء هؤلاء الرواد أنماط أخرى من الرجال أكثر شهرة وأشد جلبة : الساسة ومن فى ركابهم من الصحفيين والمرتزقة الذين غلبتهم الأطماع والمكاسب الوقتية فلم يربوا فى الشعب قيماً جديدة وسلطوا سهامهم على من ليس على شاكلتهم . ولم تكن تقلبات السياسة المصرية فى فترة ما بين الثورتين مما يغرى مفكراً جاداً بالانزلاق إلى مهاويها : فطابعها العام ديماجوجى يأنفه المفكر الحر ، ووسائلها تحارب المنطق العلمى الجاد والنقد البناء . هذا هو السر فيما أطلق عليه اسم « البرج العاجى » .

وهكذا انعزل غربال وأمثاله ، أو فرضت عليهم العزلة فى جو عام لا يحكمه منطق معقول . جماهير حظها من الثقافة العامة قليل ، تغريها عبادة البطولة بالسير منقادة وراء بعض الزعامات التى ليست فى مجموعها زعامات مثالية تحس بالمسئولية القومية . لهذا لا ندهش إذا ما وجدنا عدداً من مفكرينا الجادين ، رغم إيمانهم النظرى بالحرية وبالديمقراطية ، لا يهضمون الاتجاهات الجماهيرية فى ذلك الوقت

كما كانت عليه . لهذا اتجه الإيمان بالفرد المبرز إلى الحلول محل الإيمان بالجماعة والأمة والبشرية عامة . وقد قوى هذه النكسة شعور كثير من المفكرين بأن الزيادة فى عدد الملمين بالقراءة ورخص المطبوعات بدلا من أن تؤدى إلى تنوير الجماهير شجعت على ظهور الكتب التى انعدم فيها التركيز واعوج فيها الفكر وخلت من الفن . ولم يشأ معظم الكتاب البارعين أن ينحنوا لتلبية مطالب التجارة الفكرية ، وتمسكوا بمستويات صعبة المنال فى عالم الفن والفكر . وبلغ ازدراء الذوق الشعبي غايته فى مذهب الفن للفن الذى نادى به توفيق الحكيم ومدرسة أبوللو . وكره الكثيرون الحاضر ورؤية الجماهير الجاهلة يخدعها الساسة والأثرياء ، فولوا وجوههم شطر الماضى يحتمون به وينتعشون .

وغربال فى أعماقه مفكر فنان . ومن سمات المفكر الأصيل أنه مرآة لعصره الذى هو استمرار لتراث الماضى . حقيقة إنه فى معظم حياته الفكرية يركز على القلة الموجهة والزعامات الفردية ، وبخاصة فى المجال الفكرى (يتضح ذلك من اختياره لكتاب المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر ، لكارل بيكر لكى يترجمه — وهو الكتاب الوحيد — على ما أعلم — الذى ترجمه غربال ، وإن يكن قد أشرف على مراجعة الكثير من الترجمات وتقديم عدد كبير من الكتاب والمؤرخين والمترجمين . كما يتضح من بعض الشخصيات التى عرض لها فى أحاديثه الإذاعية كسقراط والحسن البصرى وأبى العلاء المعرى والغزالى وابن تيمية وتولستوى وجمال الدين الأفغانى — وقد خلع على هؤلاء صفة أنهم غيروا وجه التاريخ ، ومن بعض موضوعات محاضراته فى هذه الجمعية : ألكسيس دى توكفيل وتولستوى وأرنولد توينبي) . إلا أن من سمات الفنان الأصيل حبه للشعب : الشعب لا باعتباره مجموعة من الأفراد لها مايسميه بعض علماء الاجتماع بالعقلية الجماعية ، بل باعتباره وحدة ميتافزيقية تعكس الصورة التى يتخيلها المفكر الفنان لمفهوم الشعب والجماهير . وجيل غربال رغم كونه قد شهد اندفاعة الجماهير المصرية فى إبان ثورة ١٩١٩ ، تلك الاندفاعة العملاقة التى ألهمت توفيق الحكيم

فى « عودة الروح » ، كما ألهمت سيد درويش فى أنشـوداته الشعبية ، وكانت من وراء معظم إنتاج المثال الـكبير محمود مختار ، إلا أنه شهد كذلك نـكسة الثورة ، وفشل الجماهير الشعبية — لأسباب خارجة عن طاقاتها — فى متابعة أهدافها الثورية فى المجالين القومى والاجتماعى .

وغربال لم يـكن من ساكنى الأبراج العاجية . ولـكنه كان يرى أن نظرة المؤرخ تختلف عن نظرة الرجل الذى يعيش فى غمرة الأحداث وحمى الـكفاح . وهو يحب الناس ، وإن لم يكن يرتاح إلى كل الناس . وهو يحب المعرفة ، ولـكنه — كما سبق أن قلنا — يعشق التاريخ الذى كان ينظر إليه نظرة الناقد ، وربما الناقد الذى يرى الأحداث من بعيد .ولم يشأ غربال أن يتخصص بالمعنى الضيق ، وإنما كان موسوعى التـكوين الثقافى ؛ وربما كانت سعة ثقافته مسئولة عن القلة النسبية فى إنتاجه . والتاريخ — آخر الأمر — يقوم على منهج صارم لا يغتفر الشطط والفروض والخيال ، ومن ثم كان الجهد الـكبير الذى يستلزمه التأليف فى التاريخ . ولما كان غربال رائداً فى حقل تأسيس الدراسات التاريخية بشكلها الحديث ، ولما كان لا يبخل بوقته على طلبته ومريديه ، فإنه أسهم فى أكثر من مجال إسهاماً يمليه عليه وضعه فى الحياة الفكرية المصرية ، فأشرف على مراجعة ونشر مؤلفات طلبته وتقديمها ، وأعطى الـكثير من وقته لهذه الجمعية منذ أن ترأسها فى عام ١٩٥٠ ، ولذا ينبغى ألا نسرف فى مطالبته بالـكثير . ومع ذلك فإنه أشار إلى الخطوط العريضة التى على المؤرخين الجدد أن ينتهجوها . ولم يكن جامداً ، كما سنراه خلال الترتيب الزمنى لمؤلفاته الرائدة : فهو يبدأ عثمانياً من حيث الاهتمام ، ثم يرتاد مصر الحديثة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، مؤرخاً لمحمد على الذى لاشك كان له أثره فى تحويل مجرى تاريخ مصر الحديث ؛ ثم يكتب عن « تونس الخضراء » — موطن أجداده الأول — فى سلسلة دائرة المعارف الإسلامية . توجيهه الأصلى ، وقاعدة تفكيره الأساسية : العالم الإسلامى فى ماضيه وحاضره ؛ ومصر جزء منه .

ورويداً رويداً نجده يخص مصر باهتمامه الـكبير ، وبخاصة حين تعود مصر منتفضة فى أعقاب الحرب العظمى الثانية ، فترغم انجلترا على التفكير فى الجلاء . ربما يكون هذا هو ما ألهمه بتتبع قصة المفاوضات المصرية البريطانية ، ولقد أسف تلامذته ومريدوه أنه لم يـكتب من هذا المشروع إلا الجزء الأول حتى معاهدة ١٩٣٦ . ثم تنتفض مصر انتفاضة ثورية فى عام ١٩٥٢ ، هى لاشك التى ألهمته بسلسلة محاضراته الرائعة فى الإذاعة الأوروبية التى ترجمت ونشرت فى عام ١٩٥٧ بعنوان « تـكوين مصر » — وهى سلسلة المحاضرات التى تعد خلاصة اتجاهه الفـكرى ، والتى يبدو فيها بحق تلميذاً لأرنولد توينبى . وبعد أن سيطرت مصر على مقدراتهـا واسترجعت إرادتها ، انطلقت إلى آفاق العروبة ، وخلعت عليهـا رسالة تبنى الاتجاهات العربية التحررية . وكان غربال مديراً لمعهد الدراسات العربية العالية حيث ألقى محاضراته عن العالم العربى ، وهى المحاضرات التى طبع بعضها تحت عنوان : « منهـاج مفصل لدراسة العوامل الأساسية فى بناء الأمة العربية كما هى عليه اليوم » .

أرأيت كيف كان غربال مرآة لعصره باعتباره فناناً ؟ العالم الإسلامى بمعناه الواسع فى قديمه وحديثهو مجال اهتمامه ، وبخاصة آثار تفاعل هذا العالم الإسلامى بالحضارة الغربية . خلف ذلك شيئاً من التوتر، لم يكن غربال يجده مجالاً للدهشة أو حافزاً للجزع ؛ فهو فى ذاته ليس شيئاً فريداً « يماثله التوتر الذى ينجم عن التقاء جيل الآباء بجيل الأبناء فى الأمة الواحدة ، أو الذى يكون بين الخاصـة والعامة فى أمة ما ، أو بين الأديب ومجتمعه فى أى مكان . وأظن أنه يصعب بعض الشىء أن نعثر على العقلية العربية والعقليـة الغربية مختلفتين إحداهما عن الأخرى بتلك الدرجة من التغاير التى يثيرها التعبير . وقد يكون أكثر مطابقـة للواقع أن نميز بين رجل أميل للمحافظة وآخر أميل للتجديد . وقد يكون أكثر مطابقة للواقع أن نتحـدث عن تأثير القـديم وتأثير الجديد بدلاً من أن نتكلم عن الشرق

والغرب[1] » . فهو لا يعرف مشكلة ما فى مصر إلا ولها نظير فى أوروبا ؛ والمشكلات هنا وهناك تختلف بطبيعة الحال فى مظاهرها وفى حدتها أو تعقيدها ...

« ولو أن الرجل منا قدر عليه أن يواجه فى نفسه صباح مساء الصراع بين الشرق والغرب وفرض عليه أن يبحث عن صيغة يوفق بها بين عقليتين لكان بذلك شقياً » .

هذا هو جوهر تفكير غربال التاريخى : الصدام بين الغرب والشرق ؛ تحدى الغرب واستجابة الشرق الإسلامى . وهذا هو الذى يميزه عمن أخذوا التاريخ بظواهره وأحداثه دون نفاذ إلى أعماقه . وغربال — كما سبق أن قلنا — أديب فنان . وأرقى الخطوات فى مسير الثقافة الإنسانية هى شمولها للانسانية جميعها . وفى سبيل هذا الهدف حطم التأليف التاريخى قيوده التقليدية المعروفة ، من شئون عامة وحروب ودين ليسجل كل المظاهر العقلية الإنسانية . وقد ساعد الأدب على هذا التقدم : فالأدب هو المعبر عن رغبات الإنسان وأمانيه ، كما ساعد عليه أيضاً العلم وهو التعبير الجدى الصارم عن نزعته إلى المعرفة . وقد تخطى عون الآداب فى هذا السبيل حدود الشكل والأسلوب التى تصفها الكتب التى تعالج موضوع التاريخ كأدب ، فزودت المؤرخين ببصيرة نافذة شديدة المرونة والعمق فى أمور العقل الإنسانى . إلا أنه إذا تغلب الأدب على المؤرخ لإهماله العلم ، أو إذا تغلب عليه العلم لإهماله الأدب ، جاءت الصورة التى يرسمها للانسانية ملتوية مشوهة . فتدوين التاريخ يقترب من الكمال بقدر ما بين المعرفة والفن من اتساق فى العمل . انظر إليه — مثلاً — يقدم لكتابه عن تاريخ المفاوضات للمصرية البريطانية ، تجد مصداقاً لهذه النظرة العامة . فهو يقول : « فى هذه الفصول محاولة لتركيب صورة واضحة من الحوادث والوقائع والسياسات والخطط والبواعث والأغراض

---

(١) من كلمته فى المجمع اللغوى فى ٤ نوفمبر ١٩٥٧ عن محمد حسين هيكل بمناسبة شغله المكان الذى خلا فى المجمع بوفاة هيكل .

والأمانى والشهوات التى توالت على مصر والتى يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وانجلترة إلى هذه الأيام . وقد تتابعت هذه الأشياء المختلفة علينا نحن المصريين منفصلة أو متصلة وحكمنا عليها بما شئنا أو بما أريد لنا . واليوم وقد بلغنا نقطة تحول فاصلة ، ووصلنا إلى مرحلة حاسمة فى المصير ، وجدت من الخير أن نقف عند هذه المرحلة موقف التفكير المنظم وهذا التفكير المنظم لابد أن يقوم على أساس . وهذا الأساس هو ما سميته الصورة المركبة من المتفرقات التى أشرنا إليها . ولهذا العمل خطورته ومسئوليته وصعابه . وله أيضاً متعته . ولكنه جد لازم . وهو واجب وطنى ينبغى على كل مواطن أن يحاول أداءه لنفسه بالقدر الذى يستطيع » . ولقد كتب هذا التقديم لكتابه فى مايو ١٩٥٢ حين كانت مصر تمر بمرحلة الغليان السابق على الثورة . ثم يستكمل هذا التقديم بتبيان نظرته إلى قيمة الشخصيات الفردية فيقول : « وقصة الرجال فى تاريخ المفاوضات المصرية تكسب الموضوع متعة أى متعة : فلكل منهم شخصيته وصفاته ، وفى كل واحد منهم عناصر القوة وعناصر الضعف لا يشارك غيره فيها . ويكفى أن نذكر أسماء بعض من أصبحوا منهم فى ذمة التاريخ لنستدل على مافى هذه الناحية من الموضوع من ثروة للمترجم : الملك فؤاد ، سعد زغلول ، حسين رشدى ، عدلى يكن ، عبد الخالق ثروت ، اسماعيل صدقى ، محمد محمود ، أحمد ماهر ، محمود فهمى النقراشى ، عبد العزيز فهمى ، وغيرهم . هؤلاء الرجال كانوا من طراز لم تعرفه مصر قبل حقبة المفاوضات . فقد تجمع فى مصر فى ثلاثين عاماً من ذخيرة العمل السياسى ماتجمع لدى غيرها من الأمم ما يماثله فى قرن أو قرون من الزمان . ويحمل التجمع الغزير فى الزمن القصير ما يحمل النبات ينمو فى ظروف مصطنعة من العلامات والخصائص ، ولم يكن لمصر حيلة فيما حصل ، وها هى ذى قد كسبت الاهتمام بالمسائل العامة فعليها أن تكسب تنظيم الاشتغال بالسياسة والعناية بالتربية الوطنية » .

بعد هذه الإلمامة بطريقة تفكير غربال ومنهجه فى الدراسات التاريخية ، أعود فأحاول أن أطبق هذه الملحوظات على أهم مؤلفاته مسلسلة زمنياً ، وبذلك

أتجنب — بقدر الإمكان — إغراء التعميمات التى لا شك لها خطورتها من حيث تقييم الجهد التاريخى .

سأبدأ برسالته التى حصل بها على درجة الماجستير من جامعة لندن ، وهى الرسالة التى أشرف عليه فى أثناء تحضير مرحلة منها الأستاذ أرنولد توينبى ثم نشرت فى عام ١٩٢٨ بعنوان :

"The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali"

اختار موضوعاً لدراسته إذن فترة هامة من تاريخ مصر : وهى الفترة الواقعة ما بين مجىء الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨ وعقد صلح بوخارست بين روسيا وتركيا فى عام ١٨١٢ . وأهم ما فى هذه الرسالة أنها تربط أحداث مصر بالموقف الدولى : بحروب نابليون ودبلوماسيته وبالسياسات الأوروبية العامة ؛ كما تربطها بالمسألة الشرقية وتاريخ تركيا . والفترة التى اختارها غربال موضوعاً لدراسته فترة حاسمة فى تاريخ كل من مصر وتركيا : إنها بداية المرحلة الإيجابية من المشروعات التوسعية الأوروبية فى العالم العربى ، وبداية مرحلة جديدة فى تاريخ المسألة الشرقية بكل ما فى طياتها من محاولات للاصلاح فى تركيا ، ومن حركات قومية من نوع خاص فى البلقان التركى ،وما بين هذه الحركات القومية والدول الأوروبية الكبرى — وبخاصة روسيا — من صلات ، ومشكلة البوغازين وموقف انجلترا منهما ومن البحرية الروسية فى البحر الأسود . لهذا كان العنوان الجانبى للبحث : « دراسة لدبلوماسية العهد النابليونى — مبنية على دراسات فى دور الوثائق البريطانية والفرنسية » .

وقد أهدى غربال الرسالة لتوينبى باعتباره : « معلماً عظيماً وأستاذاً ملهماً » . وقدم توينبى للرسالة المنشورة بكلمات تبرز أهمية البحث ، مؤكداً أنه قد استفاد من الإشراف عليه أكثر مما أفاد ، مشيداً بصفات غربال المؤرخ الناشىء : فهو على اتصال بالشرق والغرب ، وهو بعيد كل البعد عن الأهواء والميول

التى تحيط بموضوع دراسته ، بحيث لو أن اسمه لم يطبع مع البحث لكان من الصعب القول بأن المؤلف إنجليزى أو فرنسى أو مصرى أو ينتسب إلى بلد آخر غير إنجلترا ومصر وفرنسا . وقد أشاد توينبى بهذا التجرد الذى اتسم به غربال حين كتب رسالته الأولى ، مؤكداً أن ذلك أمر صعب نسبة إلى الرواسب التى خلفها لدى المصريين ما كان من ذكرى علاقاتهم السياسية بانجلترا منذ أكثر من قرن . وأضاف إلى ذلك ما اتصف به غربال المؤرخ الناشىء من إلمام بعلم استخراج المادة التاريخية من الوثائق ، وعرض الحقائق التى يصل إليها . وأتبع توينبى تقديمه بدراسة مقارنة لمصر العصور الوسطى ومصر الحملة الفرنسية ، وهى الفترة التى نكبت فيها مصر بالركود ، بحيث حين جاءتها الحملة الفرنسية واصطرع الفرنسيون والإنجليز على الأراضى المصرية كان ذلك بالنسبة إلى المصريين وإلى مؤرخهم الجبرتى وكأنه مجموعة من السوبرمن ، تحارب مجموعة أخرى من السوبرمن ؛ على حين أن الفرنسيين والإنجليز كانوا بشراً ، إنما بشر من نوع خاص : توصلوا إلى طرائق حديثة فى العلم والمعرفة والتنظيم . ولم يدرك هذه الحقيقة من المصطرعين المسلمين على السلطان فى مصر بعد جلاء الحملة سوى محمد على الذى أكمل الاتجاهات التى عرفتها مصر بمجىء الفرنسيين ، ووجه مصر وشعب مصر وجهات جديد . لم يكمل غربال قصة محمد على ، وإنما انتهى عند الفترة التى ثبت فيها محمد على سلطانه ووضع أسس حكمه . ومنذ ذلك الوقت أخذت المسألة المصرية تشق طريقاً خاصاً بها إما فى ثنايا المسألة الشرقية العامة أو منفصلة عنها .

رسالة غربال هذه عن أصول المسألة المصرية تمثل نقلة لها أهميتها فى الكتابة التاريخية فى مصر . فمؤلفها اعتمد على الوثائق الأوروبية غير المنشورة ، وهذا أمر جديد فى تاريخ الدراسات التاريخية فى مصر . سبقته لا شك أبحاث من هذا النوع منها — على ما أذكر — بحث الدكتور سيد كامل عن « مؤتمر الآستانة والمسألة المصرية فى عام ١٨٨٢[1] » ، وهو البحث الذى نشر بالفرنسية

---

(١) La Conférence de Constantinople et la Question Egyptienne en 1882.

فى عام ١٩١٣ . بنى هذا البحث حقيقة على الدراسة الوثائقية . ولـكنه لم يعتمد سوى على الوثائق والحوليات المطبوعة — وله فى ذلك عذره ؛ إذ أن دور الوثائق لاتسمح بالاطلاع على الوثائق إلا بعد مرور فترة معينة ، بحيث لا يتضمن الاطلاع على الوثائق الرسميـة إفشاء للأسرار التى تمس السياسة العامة للدولة المعنية . الملحوظة الثانية على هذه الاتجاهات الرائدة أنها نظرت إلى الأحداث والسياسات من وجهة النظر القانونية ، مثل الدكتور سيد كامل فى ذلك مثل الدكتور محمد حسين هيكل حين وضع بحثه عن « دين مصر العـام » ، وهو البحث الذى حصل به على درجة الدكتوراة من إحدى الجامعات الفرنسية أيضاً . ربما كان مرجع ذلك أن التاريخ بشكله المنظم لم يكن حينئذ قد أصبح علماً مستقلاً قائماً بذاته ، وأنه لم يكن قد ظهر فى مصر مؤرخون متخصصون بمعنى الـكلمة . وبهذه المناسبة يجدر بى أن أشيد بالجهد الذى بذله فى هذا المضمار الدكتور محمد صبرى « السوربونى » الذى تعتبر أبحاثه عن عصرى محمد على وإسماعيل و « نشأة الرأى العام فى مصر » ، وهى الأبحاث التى وضعها باللغة الفرنسية ، مما لاغنى عنه لـكل من يدرس تاريخ الفترات التى تنـاولها . بيد أن بحث غربال عن بداية المسألة المصرية كان أسبق من الناحية الزمنية ، وإن يكن يبدو أن هذين الرائدين كانا يحصلان الدرس فى فترة واحدة : إذ كان الدكتور صبرى — وهو طالب فى فرنسا — ممن اتصلوا بسعد وبالوفد فى باريس فى أعقاب الحرب العظمى الأولى . لهذا نستشف فى مؤلفات صبرى الأولى الروح القومى الذى لانستشفه عند غربال الناشىء . فصبرى أديب مؤرخ ؛ على حين أن غربال مؤرخ أديب — ولـكل من الرجلين قيمته ، ولمنهاج كل منهما وزنه . وفرق بين التزمت الإنجليزى البارد فى العلم كما تلقنه غربال فى انجلترا ، وبين العاطفية والنزعة الفنية ، والشاعرية الفكرية التى جعلت من باريس فى فترة ما — وربما إلى اليوم — قبلة المفكرين والفنانين الـكبار من شتى أنحاء العالم .

وقد أرشدت هذه البـداية غربالاً إلى الطريق الذى لابد منه فى توجيه

دراسات تلامذته الذين اعتمد الرعيل الأول منهم على وثائق دور المحفوظات المصرية وتناولوا بالدراسة موضوعات هامة فى تاريخ مصر الحديث . وأسهم هو بدوره فى هذا المجال ، مسلطاً الأضواء على فترات أو شخصيات لها أهميتها ؛ إذ كان غربال يعرف كيف يختار موضوعه : واختيار الموضوع ذاته يعتمد على نوع الشخصية التى تختار . كان غربال إما يحصر موضوعه أو يضع الاتجاه ذاته والخطوط العريضة ، تاركاً الدراسات الجانبية لتلامذته ومن يحذو حذوه . ومما نستعرضه من مؤلفاته نجده يبتعد — قدر الاستطاعة — عن الدراسات الكلية الشاسعة ، وبخاصة فيما يتعلق بالفترات أو الشخصيات التى لم تسلط عليها الأضواء بعد . إذ أنه كان يدرك أن حقل تاريخ مصر الحديث بكر ، وأنه قبل التصدى للكتابة لابد من نشر الوثائق وأدوات البحث الأخرى .

وفى عام ١٩٣٢ نشر بحثه عن «الجنرال يعقوب والفارس لسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١» . وفى هذا البحث أبرز فكرة استقلال مصر عن تركيا ، على أساس التفاوض فى العواصم الأوروبية ، كما تخيلها يعقوب حنا ولسكاريس بعد جلاء الفرنسيين عن مصر . وقد بنى هذا البحث على المصادر العربية والإفرنجية ؛ وكعادته فى مثل هذه التآليف ، واستمراراً لرسالته التى أشار فيها إشارة سريعة إلى هذا المشروع ، نجده يربط هذا البحث ربطاً محكماً بالموقف الدولى و بأوضاع مصر ذاتها ومستوى تفكير أبنائها وأحوالها الاجتماعية .

وفى عام ١٩٣٦ نشر بحثه : «مصر عند مفترق الطرق — رسالة حسين أفندى الروزنامجى» . فى هذا البحث يتناول مجموعة الأسئلة التى وجهها إستيف مدير الإدارة المالية فى عهد الحملة الفرنسية إلى حسين أفندى الروزنامجى أحد أفندية الروزنامة فى مصر ، وإجابات حسين أفندى على هذه الأسئلة . وهذا البحث أنموذج للتحقيق العلمى ، ولا يزال حتى الوقت الحاضر من المصادر الأساسية لأحوال مصر العثمانية .

وبداية الحملة الفرنسية ، ومشروع يعقوب حنا ولسكاريس الخاص باستقلال مصر فى سنة ١٨٠١ ، ومصر عنـد مفترق الطرق . . . كل هذا لابد أن يغرى غربال بالدخول إلى عصر محمد على جملة وتفصيلاً . والموضوع ذاته جدير بالاهتمام . ولايزال مثاراً للنقاش حتى الوقت الحاضر طبقاً لنوع النظرة التى تحيط بمن يتناول عصر محمد على والرجل ذاته ونوعية مستوى الشعب المصرى فى الفترة التى تولى فيها محمد على الحكم والتى أرسى فيها دعائم هذا الحكم ، ثم حول مجرى تاريخ مصر الحديث شاء هذا الحكم من يقرأ تاريخ محمد على أم لم يشأ .

ظهر كتاب « محمد على الكبير » فى عام ١٩٤٤ . وهذا الكتاب قمة من قمم الدراسات التاريخية التى كتبت باللغة العربية على الإطلاق . ورغم القلة النسبية لعدد صفحاته ، فإنه يفرض علينا وقفة خاصة : إذ أنه أنموذج متكامل ، وربما كان الأنموذج الوحيد ، للكتابة التاريخية كما يراها غربال . فمحمد على هنا ليس شخصية تتحرك فى الزمان والمكان ؛ ولكنه محور لدراسات : تبدأ الدراسات بمصر العثمانيـة ، ثم الحملة الفرنسية ؛ وتنتقل إلى أوروبا وتركيا ، ثم إلى أحوال المجتمع المصرى كما تسلمه محمد على ، ثم التحول البطىء لهذا المجتمع وفق ماارتأته له مشيئة محمد على . مجتمع ينتقل من حال إلى حال ، على الأقل فى دوائره العليا ، إذ مسائل التغير الاجتماعى لا يمكن تناولها بنظرتنا إلى مسائل التغير المـادى . . . مجتمع مصرى متخلف توضع له أدوات وأركان التغير التقدمى ولو بعد حين طويل . وغربال يحاول أن يخلع على محمد على خطة محكمة هى التى أفضت إلى بناء قواعد الدولة الحديثة فى مصر ، ويصوره لنا يدفع جيل الفلاحين والعمال والجنود المصريين إلى آفاق فسيحة ، ويحاول أن يبرر شدته على الشعب والمماليك وتبنيه « للارستقراطية التى تتكلم اللغة التركية » . وعلى أى حال فالمؤرخ ليس القاضى الذى يمسك بيديه موازين العـدالة ويوزع الخير والشر كما يحلو له ، وإنما هو يحكم على الأشخاص والأعمال فى نطاق الطبيعة البشرية .

نشر هذا الكتاب فى « سلسلة أعلام الإسلام » — وهو يختلف عن مؤرخى مصر الحديثة الذين ينظرون إلى مصر العثمانية باعتبارها جزءاً من تاريخ مصر ؛ فى حين أن غربال يعتبر مصر العثمانية ومصر محمد على جزءاً من تاريخ الإسلام . وقد برر هو ذاته اختياره محمد على علماً من أعلام الإسلام ، على اعتبار أن مصطلح « إسلامى » لا يقف عند فترة تاريخية معينة . ثم جعل من محمد على محوراً لدراسة عصره فى الشرق والغرب ، مصطنعاً أسلوب التحليل والتركيز والربط كأحسن ما يكون الاصطناع . وصدر فى هذا الكتاب عن تمكن تام من موضوعه ، وعن أسلوب للتعبير يصطنع الدقة المتناهية فى اختيار اللفظ ، وطرق العرض الفلسفية وطرائق علم النفس ومناهج علم الاجتماع . وهو فى هذه الترجمة إسلامى بالمعنى الواسع . يربط موضوعه فى إطار تجسيم ما قد قام به محمد على مع الرفق الشديد حين يعدد له الهنات الهينات . انظر إليه يقارن بين مصر المماليك المتأخرين ومصر المماليك الأول :

« مصر بيبرس محور ذلك العالم العربى الذى اكتسب مقوماته وانفرد بشخصيته على أثر انهيار الخلافة العباسية . وهو اجتماع يتركب من طوائف وجماعات لها شخصيتها وقانونها وعرفها ووظيفتها . فمن أصحاب السيوف إلى أصحاب الأقلام ، ومن أهل الفلاحة للأصناف (أصحاب الصناعات) ، ومن أرباب السجاجيد إلى هيئات التدريس — وهلم جرا .

ويكتسب ذلك الاجتماع الصاخب حيويته من حكم الجماعات نفسها بنفسها ، كما يكتسب لوناً من التنسيق والانسجام من شخصية السلطان ؛ يدفع الناس بعضهم ببعض ، ويحاول أن يخضع الأهواء والمصالح لجهود عامة فى تحقيق مثل عليا تهم الناس جميعاً . ولكن كانت آفة ذلك الاجتماع ما صحبه من سرف وتبديد كان من شأنهما على توالى الزمن وضع أعباء على الطوائف المنتجة من أهل الفلاحة والصناعة والتجارة ، أنهكت قواها الحسية والمعنوية . وكانت آفته

الأخرى من أول الأمر انصراف الناس نحو شئونهم الخاصة بأشخاصهم وجماعاتهم، وابتعادهم عن الشئون العامة واعتبارهم إياها « سياسة عليا » ، كما نقول الآن ، هى مما ينبغى النظر فيه للسلطان والأمراء ، وليست مما ينبغى للرعيـة . وقد وجدوا فى تعليم أئمتهم ما يبرر إيثارهم العافية » .

وفى هذه الفترة أيضاً صدر غربال للـكتاب الذى أصدرته « دائرة المعارف الإسلامية » عن : « تونس الخضراء » بمقدمة سياسية تناولت الوضع الدولى السابق على فرض فرنسا حمايتها على تونس؛ إذ لا يمكن فهم هذا التطور فى السياسة الفرنسية إلا بربطه بأوضاع المسألة الشرقية والحرب الروسية — التركية (١٨٧٧—٨)، ثم مؤتمر برلين وما طرح فيه على بساط البحث من تقسيم للامبراطورية العثمانية . وهذه المقدمة القصيرة المركزة تدخل بنا إلى المقدمات الأخرى المركزة التى وضعها غربال لـكثير من مؤلفات وترجمات طلبته والعاملين معه . وتمتاز هذه المقدمات بالشمول ، وتهيئة الذهن للموضوع ؛ بل إن بعضها مما يغنى الدارس غير المتخصص عن الإيغال فى تفاصيل الموضوع ذاته .

وفى عام ١٩٥٢ نشر غربال الجزء الأول والأخير من كتابه عن « تاريخ المفاوضات المصرية — البريطانية » ، وهو أطول ما كتبه غربال باللغة العربية . ويخيل إلى أن غربال لم يعط نفسه فسحة من الوقت لصقل هذا الـكتاب ومراجعته. ولذا فإننا نجد مراحله الأولى تختلف عن مراحله الأخيرة التى يسرف فيها فى عرض النصوص الـكاملة لمشروعات الاتفاقات ومحور المفاوضات بين الإنجليز والمصريين . وكان يستحسن أن يلخص مضمونها ، على أن تورد النصوص فى ملاحق مستقلة .

على أن غربال — باعتباره رائداً من رواد التاريخ الحديث ، وتاريخ مصر الحديثة بالذات — يلفت النظر فى الفصل الأول من هذا الـكتاب إلى مصادر التاريخ المصرى الحديث ، على الأقل فى فترة دراسته . هناك مثلاً المجموعات الرسمية التى أصدرتها الحـكومتان المصرية والانجليزية ، أو مجموعات الـكتب

الملونة : بيضاء وخضراء وزرقاء . وهناك الصحف والمضابط البرلمانية . وأهمية كل ذلك نسبية طالما أن الوثائق الرسمية الأصلية لم يكشف عنها اللثام بعد : فالوثائق الرسمية المصرية تقف عند عام ١٨٧٩ ، أى قبل موضوع بحث غربال بسنوات ثلاث ؛ والوثائق الانجليزية — على ما أعلم — تقف عند عام ١٩١١ . وللآن لم تقم دراسة وثائقية للفترة التالية على عام ١٨٨٢ فيما يتعلق بالعلاقات بين مصر وانجلترا سواء بالإنجليزية أم بالعربية .

ثم ينتقل فى هذا الموضوع إلى المذكرات الخاصة ، فيقول إن كتابتها لم تتأصل بعد بين رجالنا — حتى مذكرات الدكتور هيكل فى السياسة المصرية هى لديه أقرب إلى التاريخ منها إلى المذكرات لأنها لم تكتب وقت حدوث الوقائع ، بل بعدها بوقت ما . وينتقل بعد ذلك إلى التراجم ، فيسجل قلتها إن لم يكن عدمها. ونوه بترجمة عباس محمود العقاد لسعد زغلول ، ونقد بعض جوانبها ، وخرج إلى أنها بحث ممتع ؛ ولكنه لا يعين كثيراً على الترجمة لسعد زغلول !! .

وقد انتقل غربال فى آخر هذا الفصل إلى الدراسة التاريخية ، ونوه بجهود الأستاذ الرافعى فى جمع مادة تاريخ مصر الحديثة منذ أواخر العهد العثمانى ، وأخذ عليه طريقته فى الحكم : الميزان ذو الكفتين ؛ وهذه طريقة وإن يكن لها وزنها فى دنيا القضاء والقوانين إلا أنها لا تصدق على التاريخ . فالعدالة فى الحكم التاريخى — عند غربال — لا تتحقق على هذا الوجه السهل ، ولا تتم إلا بالتقدير العام لسياسة أو لموقف .

على أن بحث غربال فى تاريخ المفاوضات يشتم منه التفاعل بالأحداث والخروج بعض الشىء عن التجرد الذى لمسناه فيه حين وضع رسالته عن « أصول المسألة المصرية وظهور محمد على » . فهو يكتب فى موضوع حساس عاش معظم فترته . وكشأن المواطن الذى لابد مهتم بمصائر بلده ، نجد غربال يبتعد عن تزمت المؤرخ ، ويمسك بالميزان الذى أخذ على الرافعى أنه جعله ذا كفتين : فهو له

آراؤه الخاصة فى المواقف والرجال ، وهو مصرى بشكل واضح ينعى على قومه الفرقة التى لم يكن لها أحياناً ما يبررها ويستشهد بقول الشاعر :

قومى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى
فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهنن عظمى

وتتضح هذه المصرية بشكل أكيد فى سلسلة المحاضرات التى ألقاها فى الإذاعة الأوروبية ونشرت فى أصلها الإنجليزى أولاً بعنوان The Making of Modern Egypt ثم ترجمها الأستاذ محمد رفعت فى عام ١٩٥٧ تحت عنوان : « تكوين مصر » . وهنا يتضح النهج التى سبق أن لمسناه فى كتاب « محمد على الكبير » ، مع مسحة حضارية تناسب الموضوع الشاسع فى الحيز الضيق . خفت فى هذه المحاضرات المؤثرات العثمانية — الإسلامية ، وتبلورت فيه الصورة المصرية مجردة عن كل ما يمكن أن يفرق بين المصريين ، بحيث حين تأتى المرحلة العربية من اتجاه مصر الحديثة ، وهى المرحلة التى اتضحت بشكل بارز بعد ثورة ١٩٥٢ ، يكون غربال قد مهد نفسه لصقل الصورة العربية العامة وموضع مصر من هذه الصورة .

فى هذه المحاضرات نجد غربال عاشقاً لمصر خلال العصور كلها . « وهذا على الرغم من أننى أعرف أنه ليس فى مقدور الرجل منا أن يحيط بالأدوات والدراسات كافة اللازمة لكل قسم من أقسام تاريخ مصر المعروفة .... دع عنك الإحاطة بها جميعاً . بيد أن الأخصائى والقارىء غير الأخصائى كلاهما يجد متعة ذهنية ومغنماً فى آن واحد لو حاد بين الفينة والفينة عن طريق التخصص؛ الطريق الضيق ، واضعاً نصب عينيه أن هناك « مصر » دائماً ، وأنها تسمو فوق هامات الحقب والعصور » .

بعد هذه المقدمة الشيقة نجده يتناول موضوعات الاستمرار والتغيير فى تاريخ

مصر ؛ الحكومة والمجتمع فى مصر ؛ الإنسان والمجتمع فى مصر ؛ المدينة والريف فى تاريخ مصر ؛ مصر والعهد القديم ؛ مصر والهيلينية ؛ مصر والمسيحية ؛ مصر والإسلام ؛ وأخيراً مصر والغرب . إن هذه المحاضرات تمثل نوعاً فريداً فى طريقة العرض التاريخى فى العالم العربى — الإسلامى ، شأنها فى ذلك شأن كتاب محمد على الكبير . هنا ، وهنا بحق ، نجد غربال تلميذاً لأرنولد توينبى دون أن يتقيد بحرفية منهاج أستاذه فى تفسير التفاعل الحضارى وانتقال المؤثرات الحضارية من مكان إلى مكان .

فمن الإسراف وضع قانون ثابت أو قوانين ثابتة لحركات المجتمعات التى هى المادة الحية للتاريخ بمعناه الواسع . ذلك أن الإنسان لا يصدر فى سلوكه الفردى والجماعى عن أنماط ثابتة من السلوك بحيث تكون الاستجابة على قدر المؤثر — كما هو الحال فى القوانين الطبيعية ولدى الأنماط الدنيا من الكائنات الحية . إنه ليس آلة صماء يسهل التحكم فيها . فأرنولد توينبى — مثلاً — يبنى دراسته للتاريخ على قانون ثابت يقوم على التحدى والاستجابة ؛ وقد لقى تفسيره للتطور الحضارى كثيراً من المآخذ فى إنجلترا ، وإن كنا لانستطيع إنكار قيمة الجهد الذى قام به . وكارل ماكس يربط بين حركة التاريخ الصاعدة وبين العامل المادى — الاقتصادى . ومدرسة السلوكيين فى علم النفس تستمسك بالفعل المنعكس الشرطى القائم على تجارب العالم الروسى بافلوف على الكلاب . وفرويد يضع الغريزة الجنسية وراء كل دافع بشرى .

وربما كانت نظرة أرنولد توينبى أكثر مرونة من غيرها ؛ فالإنسان — مع تمتعه بقسط وافر من حرية الاختيار لا يستطيع فكاكاً من إسار الطبيعة وبيئته المادية . ونحن لا نستطيع أن ننكر أثر تحدى الطبيعة للانسان وتحدى الإنسان للانسان فى مجرى النشاط البشرى العام . ولكننا الآن — فى النصف الثانى من القرن العشرين — نجد الإنسان وقد توفرت له الأدوات التى لا شك

ستمكنه — لو أحسن استخدامها — من التغلب على الطبيعة والتخفف من إسارها الذى كان بالنسبة إلى الإنسان القديم ، بل ربما حتى الوقت الحاضر فى مجالات شاسعة ، قدراً غالباً وحتمية قهرية . إن إنسان النصف الثانى من القرن العشرين هو الذى يتحدى . ومع ذلك فليس فى طاقتنا أن نتنبأ بخطوط تفصيلية محددة للتطور البشرى . فمهمة المؤرخ هى ترتيب ما يتجمع لديه من الوقائع التاريخية وتحليلها وتفسيرها . وليست مهمته التنبؤ أو الحدس سواء فيما يتعلق بالحاضر أو بالمستقبل ، إلا أن يكون ذلك من قبيل الافتراض العلمى .

أدرك غربال كل ذلك إدراكاً واعياً ، فلم يشأ أن يخضع لفلسفة تاريخية معينة . فهو يأخذ من كل تفسير بقدر طبقاً للملابسات التى تحيط بموضوعه . وحيثما تصادفه قضية كبرى من قضايا التطور الاجتماعى نجده يستشهد بآراء كبار المفكرين التى قد تفسر الزوايا المختلفة لهذه القضية ، دون أن يربط نفسه كلياً بهذا أو بذاك . هذا وغربال — لاشك — كان على علم وثيق بأهم المناهج التاريخية وبالأنماط المختلفة من كبار المفكرين . ولكن طبيعته السمحة واتساع أفقه وإيمانه الواضح بحرية الإنسان مما جعله يتحرز من الانتماء لمدرسة معينة فى تفسير التاريخ . وبين هذا وذاك نجد لديه تمشياً مع أستاذه أرنولد توينبى فى الأخذ بقيمة الصفوة الخالقة élite فى مجال النشاط البشرى بشتى زواياه . وهذه نقطة جوهرية هى باستمرار مثار للنقاش وبخاصة بعد ظهور التحدى الاشتراكى فى المجالين الاجتماعى والفكرى ، وهو التحدى الذى خلع على الجماهير من الوعى ما لم يخلعه الكتاب من قديم الزمن .

أما المحاضرات التى ألقاها غربال فى معهد الدراسات العربية ونشرت قبيل وفاته بعنوان « منهاج مفصل لدراسة العوامل الأساسية فى بناء الأمة العربية كما هى عليه اليوم » فهى آخر مجهودات غربال فى مجال الكتابة التاريخية ، وإن لم تكن آخر ماطبع له ؛ فقد جمعت دار الإذاعة متفرقات من أحاديثه تحت عنوان « من زاوية القاهرة » ، سننهى بها حديثنا هذا عن غربال .

فى « المنهاج المفصل » نجد غربال يضع الخطوط العريضة للتفاعل والصراع فى العالم العربى تحت الحكم العثمانى وبعد الحكم العثمانى . والمحاضرات تنقسم قسمين : القسم الأول لمحة سريعة عن العالم العربى والدول المختلفة القائمة فيه : الموقع الجغرافى لكل منها واقتصادياتها وتعداد سكانها . أما القسم الثانى فهو القسم الهام ، وفيه يعرض المؤلف للعالم العربى والأوضاع القائمة فيه والتيارات الفكرية التى غلبت على النـاس ، وكانت سبباً فى تأخر العـالم العربى . فالاتجاه العام قبل التحدى الأوروبى هو أن العرب المسلمين عاشوا فى جو خيالى نابع من معتقداتهم الدينية : فقد تصوروا أنهم بعزلتهم لهم الجنة وأن لغيرهم النار . لهذا لم يتطلعوا إلى الاستزادة من العلم التطبيقى الأوروبى . وساعد على ذلك أن الحكم العثمانى كان يحول بينهم و بين التطور ،وذلك برغم حركة التنظيمات المستوحاة من التفوق الأوروبى خصوصاً فى جوانبه المادية . وقد جاء التوتر السياسى فى العالم العربى نتيجة لمحاولة الدولة العثمانية تقوية قبضتها على البلدان العربيـة ، وهو ما عرف بحركة التتريك . ثم تلا ذلك سقوط الإمبراطورية العثمانية ووقوع العالم العربى تحت التبعية الأوروبية . وقد أبرز المؤلف دور حركة الشريف حسين ودور المثقفين الذين عقدوا مؤتمرهم فى باريس فى عام ١٩١٣، وكيف أن الفريقين قد ركبا متن الشطط ، وانتهزت كل من انجلترا وفرنسا الفرصة لتقسيم العالم العربى ووضعه تحت نفوذهما المباشر . ولـكن المد القومى الصاعد مالبث أن تبلور وتجمع متمثلاً فى رفض المعاهدات التى أمليت والوضع غير العادل الذى ادخر لفلسطين . وما لبث العالم العربى فى مشارقه ومغاربه أن تصـدى للحصول على استقلاله ، خاصة وأن البلدان العربية فى مجموعها مجيدة التاريخ سواء قبل أن تصبح عربية و بعد أن أصبحت عربية .

وصفات العرب كما كانوا عليه تحت الحـكم العثمانى ليست هى الصفات الأصيلة فيهم ؛ بل هى صفات دخيلة بحكم الركود والجمود . فمقومات التاريخ العربى

— كما يذكر غربال فى إحدى محاضراته الإذاعية المطبوعة — متوسطة بين طرفى الإفراط والتفريط : فارتقاء الحسيات يقابله ارتقاء مماثل للمعنويات ؛ والعناية بالزراعة وما يتصل بها من الغراسات والتفنن فى الاستنبات والبراعة فى جر المياه وصرفها ، لاتقل عن العناية بالصناعات ، والزراعة والصناعة شأنهما لايقل عن شأن التجارة ومايتصل بها من تنظيم وطرائق إنهاء الحقوق والادخار والائتمان » . وهذا ينطبق على الحياة العقلية : فهى تعنى بالأبحاث النظرية دون إهمال للتطبيقات العملية ، وكذلك الحال فيما يتعلق بالحياة الروحية : فلا إسراف عموماً فى رعاية مايوجبه حق الجماعة وما يقتضيه حق الفرد . وهو يرى أن اللغة العربية هى جماع عقل وروح الأمة العربية ، وهى أعظم ماخلق العرب ، لماضيهم وحاضرهم ولمستقبلهم.

فى المجموعة الأولى من هذه المحاضرات نجد غربالاً يتناول موضوعات حضارية بحتة أدرجت تحت عنوان نظرات فى التاريخ العربى : العرب بين الأمم؛ تعبير الفن عن الشخصية العربية ؛ تعبير العلم عن الشخصية ؛ الشعوبية القديمة والشعوبية الجديدة ؛ المدينة العربية ... حكومتها فى الماضى والحاضر .

وفى هذه المحاضرات نجد غربالاً يختار النقاط البارزة فى الحيـاة العربية ، محاولاً تحديد مفهومى عربى وإسلامى . ووصف إسلامى — لديه — أعم وأصدق. ثم هو يسجل للعرب محافظتهم على حيويتهم ومقوماتهم منذ القرن السادس عشر برغم التغلغل الأوروبى والسيادة التركية العثمانية ، ويحثهم أولاً أن يكونوا أقوياء : « فالقوى لاينفع نفسه فحسب ، ولـكن ينفع النـاس جميعاً بقوته » . كذلك نجده يحاول مقارنة الشعوبية القديمة بالشعوبية الحديثة فى داخل العالم العربى ، وأن هذه الأخيرة لن تنال من العالم العربى أكثر مما نالت الشعوبية القديمة : إذ المجتمع العربى قد التقت فيه العناصر الوافدة والأصلية وتفاعلت وأثمرت ، وأن هذا المجتمع مجتمع الجميع ، وأن التاريخ العربى ملتقى التواريخ .

أرأيت كيف انتهى غربال محدداً لنفسه موقفاً إيجابياً من قضية الحرية والالتزام ؟ إنه بصفته من رواد الفكر لابد له من وقفة إيجابية إزاء مجتمع يتحرك

ويتطور ويتطلع إلى آفاق جديدة . وأنهى كلمتى هذه بطرح قضية الحرية والالتزام على هذه الجمعية الموقرة القائمة فى صمت على خدمة الدراسات التاريخية المتشحة بالثوب العلمى ، مقتبساً الفقرة الآتية من الميثاق الوطنى :

« إن العلم للعلم فى حد ذاته مسئولية لا تستطيع طاقتنا الوطنية فى هذه المرحلة أن تتحمل أعباءها .

لذلك فإن العلم للمجتمع يجب أن يكون شعار الثورة الثقافية فى هذه المرحلة .

على أن بلوغ النضال الوطنى لأهدافه سوف يسمح لنا فى مرحلة متقدمة من تطورنا بأن نساهم إيجابياً مع العالم فى العلم للعلم » .

أحمد عبد الرحيم مصطفى